لغة الدواوين

للأستاذ محمد عيسى

يراد بالتصريح فى لغة الدواوين إباحة ما لا يباح إلا بإذن خاص ممن يملك ذلك الإذن بحكم القانون .

وبهذا المعنى يتردد التصريح ومشتقاته فى شتى العبارات ، ويدور فى كثير من المكاتبات.

فالموظف لا يباح له التخلف عن عمله يوما أو أياما إلا بموافقة رئيسه . فإذا التمس الموظف تلك الموافقة ، قيل إنه يطلب التصريح بإجازة . فإذا وافق الرئيس كتب إلى الموظف أن قد صرح له بالإجازة المطلوبة ، وكثيرا ما تحل تصرح لفلان محل صرح له ، على عادة الدواوين فى وضع مادة تفعل فى موضع الفعل المبنى للمجهول ، مثل تنبه عليه ! !

وتلاحظ كذا ! ! وهو تزيد فى الخطأ وامعان فى مهاجرة الصواب .

وإقامة الموالد أو فتح الأسواق يتوقف كل منهما على إذن الجهة الحكومية المنوط بها أمر الموالد أو الأسواق فإذا أذن فى إقامتها أو فتحها ، عبرت الدواوين عن ذلك بالتصريح بإقامة المولد أو فتح السوق .

والمناطق الحربية مثلا يحظر السفر إليها أو دخولها إلا بجواز خاص ، فإذا حصل انسان على هذا الجواز ، قالت الدواوين إنه يحمل تصريحا باجتياز المنطقة أو دخولها .

وهكذا أصبح التصريح فى لغة الدواوين مرادفا للإباحة ، فالمصرح به مباح ، وغير المصرح به محظور .

ولا أحب أن أغلو فى الحكم على هذا التعبير فأنسبه إلى الخطأ الصراح ، مادام فى لطافة الذهن يلتمس له وجه من الصواب ، وهو أن الدواوين إنما استعملت هذه المادة فى تلك المعانى على سبيل المجاز ، لأنه لما كان الأمر الذى يبيح غير المباح يجب أن يكون أمرا واضحا صريحا لا لبس فيه ولا غموض ، جاز أن يسمى تصريحا تسمية للشىء بأخص صفاته .

ولكنى أريد أن أقول إن هذا اعتساف ، وركوب لطرق مجهولة فى التعبير عن أغراض يجب اللغة الوصول إليها بمناهج واضحة المعالم ، بينة الحدود .

فالموظف الذى يطلب موافقة رئيسه على التغيب عن العمل إنما يستمنح إجازة ، لأن القانون المالى يعتبر الإجازة منحة ، أو هو يستأذن فى إجازة ، فإذا وافق الرئيس ، فقد منح الموظف الإجازة ، أو أذن له فيها أو رخص له فيها ، لأن الإذن فى الشىء معناه لغة إباحة والرخصة والترخيص فى اللغة : التيسير والتسهيل ، ومثل هذا يقال فى اجتياز المناطق المحظور دخولها وفى إقامة الموالد وفتح الأسواق وفى كل ما يتصل بهذا المعنى مما تستعمل فيه مادة التصريح .

وبذلك تتاح للدواوين جملة من الألفاظ المألوفة كالمنح والإذن والرخصة والترخيص والإباحة والجواز والإجازة ، للدلالة على المعانى التى أكرهت التصريح على أدائها .

ولو أنها فعلت لأكسبت لغتها مادة من الألفاظ وصورا من التراكيب ، تنبىء عن غنى اللغة ، وتجلو جمالها ، وتعين على تحديد المعانى ، وتمير الأغراض .

فالتصريح إذن كما يجرى فى لغة الدواوين ، لم تعرفه اللغة العربية وضعا ، ولم تألفه استعمالا ، إذ هو فى لغة العرب مصدر صرح بمعنى أن كشف وظهر أو كشف وأظهر ، يستعمل لازما ومتعديا .

يقال : صرح الحق عن محضه ، أى كشف عن خالصه وهو مثل فى ظهور الأمر غب استتاره .

وصرح النهار : ذهب سحابه وضاءت شمسه . وصرحت الأمر وأصرحته : بينته وأوضحته . وصرح فلان بما فى نفسه : أبداه وأظهره وتصرح الزبد عن الخمر : انجلى تخلص وانصرح الحق : انكشف وبان ، ومنه الصراحة وهى الخلوص والوضوح ، والصريح صفة لكل شىء بين واضح خالص من الشوائب ، يقال : هو صريح النسب ، وصريح النسمة ، وابن صريح ذهبت رغوته .

أما التصريح حين يراد به الكلام ، فهو التعبير عن المراد بلفظ خالص ظاهر ، لا يحتمل المجاز ولا التأويل ، ويستعمل بهذا المعنى صوابا فى الصحف والأحاديث ، يقال تصريح رئيس الحكومة عن مسألة القطن ، أو عن علاقة مصر بالدول العربية ونحو ذلك .

والتصريح فى البلاغة خلاف التعريض ، أى هو الدلالة على المعنى من طريق المفهوم على أن المراد فى التعريض ، يفهم من طريق التلويح والإشارة ، لا من طريق النص عليه . كما روى أن امرأة جاءت إلى بعض الأمراء تقالت : أشكو إليك قلة الجرذان فى بيتى ، فقال الأمير : ما أحسن ما عرضت بحاجتها ؛ املئوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما .

فقلة الجرذان هنا تلويح إلى خلو البيت من الطعام وتعريض بطلب المعونة على العيش.

ومن أصلح ما ورد فى هـذا الباب ، ما كتبه عمرو بن مسعدة الكاتب البليغ المشهور إلى الخليفة المأمون وهو : "أما بعد فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول فى الحاقه بنظرائه من الخاصة ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه ذلك تعدى طاعته ، والسلام" .

فوقع المأمون فى كتابه :

" قد عرفت تصريحك له وتعريضك بنفسك ، وقد أجبناك إليهما " .

وفى هذا المثال بيان صريح ، للتعريض والتصريح . فالكاتب عمرو بن مسعدة ، قد صرح للمأمون بحاجة المستشفع به وهى الحاقه ببطانة الخليفة ، واغتنم فرصة إزجاء هذه الحاجة إلى مقام الخليفة ، ليرجوه فى رفع درجته هو وترقية رتبته ، ولكنه عدل فى هذا الشأن عن التصريح إلى التلويح ، وسلك إلى غايته مسلكا لطيفا انتهى به إلى النجاح .

ولئن دل عمرو بن مسعدة بكتابه على الحذق والبراعة ، لقد دل المأمون بتوقيعه على فهمه لأسرار هذه الصناعة ، وحرصه على ترويج تلك البضاعة .

محمد عيسى